قصة (الطوفان) العبرية(*) سليلة قصة (الطوفان) البابلية:

المعروف، قطعا، أن قصة (الطوفان) العبرانية على ما وردت في (سفر التكوين: Genesis) جرى تدوينها، على غرار تدوين الـ(الأسفار الخمسة: Pentateuch)[1]، وعلى ما وصلت إلينا بعيد سبي اليهود في بابل، وإن كنا لا نعرف تاريخ تدوينها على التعيين. وما كان مدونوها أصلاء في ذلك، ولعل هدفهم الوحيد كان تجنب هذه الأصالة عينها. إن (هدفهم الأول) كان جمع وتنظيم الكتابات المقدسة

(*) كلمة عبراني Hebrew ذات أصل عريق، وقد أطلقت في (سفر الخليقة ١٤/١٣) على إبراهيم، فلا مناص من أن تكون اسماً عشائرياً. وعلى الاعتقاد الشائع إنها مشتقة من الاسم (عبر) وهو اسم أحد أسلاف إبراهيم نفسه، لذلك فهو يرجع إلى عهد سبق زمانه بمدة طويلة، إنه السلف السادس من أسلاف إبراهيم، أن الاسم عبيرو Habiru هو الاسم عبراني: Hebrew سواء بسواء. أن الاسم (يهود) أعم من أسم (عبرانيين) أو (بني إسرائيل) لأن الأولى تشمل (العبرانيين) ومن اتخذ اليهودية ديناً وهو ليس منهم. أما بنو إسرائيل فيراد بهم الأسباط الاثني عشر الذين أخرجوا من مصر إلى فلسطين – والأسباط عند اليهود كالعشائر عند العرب سواء بسواء. ولقد ألف ١٠ من هؤلاء الأسباط مملكة إسرائيل أما السبطان الباقيان فقد كونا مملكة – يهودا.

راجع قاموس الكتاب المقدس (١/٩٣ وما بعدها).

(١) الكلمة يونانية النجار مركبة من كلمتين هما: Penta على معنى (خمسة) و (Teuchos) على معنى (أسفار). والأسفار الخمسة هي: (التكوين) و (الخروج: Exodus) و (اللاديين: Lanticus و (العدد Numbers) و (التثنية Deuteronomy) أنها، على رأي العبرانيين القدامى هي الأسفار المنزلة على موسى، ثم توسعوا فاطلقونها على الأسفار التي تكون (العهد القديم): وليس في القرآن الكريم ما يحدد الأسفار أو يفصلها.

التي تختص بالجنس اليهودي في أسفار مدونه، بالاقتباس من المصادر الشفوية.

لذلك فإن كلاً من (سفر الخليقة) و (سفر الخروج) حديث، وإن كانت مصادرهما قديمة. لقد تجلت هذه الحقيقة في القرن التاسع عشر الميلادي: فدرّاس (العهد القديم) أثبتوا أن الأسفار الخمسة (ليست من الوحي الذي نزل على موسى - وهو ادعاء لم يرد صراحة فيها أيضاً وإن نسختها الحالية ليست إلا تدوينات الكتاب اليهود، أثر السبي البابلي، أي بعد قرون كثيرة من الحوادث التي تدونها، وتزعم حدوثها. والذائع المعروف الشائع أن هؤلاء الكتاب لم يركنوا إلى مصادر خطية، لأنها لم تكن ميسورة أصلاً وأن الكتاب الذين دونوا تلك الأسفار لم يكونوا إلا دعاة دينيين، ممن أرادوا دعم آرائهم بإرجاعها إلى ماضي شعبهم القديم، وأن التواتر كان معينهم الأول الفذ. إن الركون إلى مثل هذا التواتر، بطبعه، يبين صحة فحوى ومحتوى ما دونه أولئك الكتاب، ولا شك في أنه قد أضيفت إلى (الحوادث) أشياء وزوقت عبر مراحل انتقالها من فم إلى فم. وهكذا نجمت طائفة من النقد قبيل انتهاء القرن التاسع عشر تنسف الأساس التأريخي لكل القصص الواردة في (أسفار العهد القديم الأولى) تقريباً[1].

لكن الذي يغنينا من ذلك كله هو (قصة الطوفان). أنها، على ما وردت في (سفر الخليقة)، تحفظ لنا الشطر الأكبر من (النسخة البابلية).

---

[1] راجع: Sir Leonard Woolley: Abraham, p. 20.

لإن الكتاب اليهود لم يحفظوا لنا القصة حسب وإنما ألفاظها أيضاً، وبكل أمانة غالباً، أن قصة الطوفان العبرية والقصة البابلية التي نسلتها تتسمان باللون المحلي، ومن الدلائل على ما نقول:

١-طلاء (السفينة) بالقار، وهو من منتوجات بلاد ما بين النهرين منذ القديم.

٢-ضحالة الماء النسبية، إذ لم يزد عمقه على ٢٦ قدماً، ومع ذلك أغرق جميع الأرضين!

٣-واحتفاظ النسخة العبرية بصيغة الجمع لـ (الآلهة)،والدالة على عقيدة تعدد الآلهة البابلية الأولية، ومعلوم أن (الوحدانية كانت عقيدة العبرانيين المتأخرين).

صحيح أن الفارق بين القصتين. روحياً، كبير. أما أن (الأولى) نسلت (الثانية) فهذا صحيح لاشك فيه أيضاً. لقد عاش اليهود بين البابليين أيام السبي، وتأثروا بدينهم تأثراً عميقاً، وشأن الدين في ذلك شأن الأفكار الاجتماعية أن القرن السادس، قبل الميلاد، وعهد السبي البابلي منه بخاصة، هو الذي عرّف اليهود بقصص الخليقة والطوفان، وما كانوا ليعلموا عن ذلك، قبله، شيئاً. ومن المحقق أن الأفكار الدينية المضمنة في هذه (القصة) على ما وصلت إلينا، تعود إلى زمن يلي السبي، لأن تدوينها النهائي حدث خلال السبي أو بعده وثمة ملحوظ آخر يتصل ببطل قصة (الطوفان) البابلية ، وهو على ما ذكرنا يدعى: اوتا – نبشتم، وبطل قصة – (الطوفان) العبرانية: نوح. إن العلاقة بين الاسمين، على ما هو بيّن، معدومة. وعلى الرغم من أن في (العهد

القديم) تفسيراً للاسم: (نوح)، ولكنه لا يعدو لعباً على الألفاظ، ومصطنعاً، أنه محاولة لتفسير ما لا معنى له حقاً[1]. ولا يرد الاسم (نوح) في أي صنيع يهودي آخر، سواء أكان ذلك على انفراد، أم بالتركيب مع أسماء أخر. ولسائل أن يسأل: لم أذن الاسم (نوح) في قصة الطوفان العبرانية يا ترى؟ يجيب عن ذلك (الأب باروز Father Burrows)[2] في الأجزاء الحرانية من (أسطورة الطوفان) يرد اسم البطل بصيغة نحموليل Nahmolel[3] أو نا حمو ليل ?Na ah-mu Liel وأن هذا الاسم، أما بالاشتقاق أو بالاختصار، وعلى غرار ما يحدث في العبرانية (وعلى مثال لما حدث لاسم الملك الآشوري تيغلات بيليصير الذي أصبح أبول)[4] فاسم نا حمو ليل ذو رابطة، بالاسم (نوح المعروف). ومن المفيد أن نقول إن اللهجة (الحرانية)، التي كتبت بها

---

(1) راجع: .Sir Leonard Woolley: Abragam p. 175

(2) Notes on Harrian, in J.R.A.S. 1925 PP. 281-4.

(3) لا تعرف طريقة نطق الأسماء في السومرية والبابلية تماماً فـ (نحموليل) قد ينطق على وجه قريب من نطق اسم (نوح) – وهو في السامية نحو Nuh: راجع:
Sir Leonard Woolley: Abraham p. 176 (foot- note).

(4) في أورفه (اديسا القديمة) الكائنة قرب نصيبين (حران القديمة) جامع فيه حوض مليء بالسمك هو: (سمك إبراهيم) والعامة تجله كثيراً وتحرص على عدم اصطياده ويذهب (التواتر المحلي) إلى أن (إبراهيم) عندما هاجمه جنود نمرود دعا الله أن ينجده فأمده بعون من الجند، المشاة والخيالة، خرجوا من الماء وما أن استرجعوا ما نهبه جنود نمرود وولوا هاربين، حتى عادوا إلى البركة سمكاً.
وهذا يدل على أن معتقداً كان شائعاً بأن إبراهيم ثوى فيها. الشبه بين أسمي (أورفه) و (أور الكلدان) هو السبب في وضع الأخيرة في الخوارط التأريخية محل أورفه.
راجع:
Sir Leonard Woolley, Abraham p. 591-60.

الرقيمة، كانت لغة- التخاطب في منطقة الشرق الأوسط كله، ومنها منطقة حران نفسها. وعاش في حران إبراهيم، و (تارح) وجاءت (ربيكا) منها أيضاً، ولبث فيها يعقوب ١٤ سنة على ما تقول المصادر العبرانية. فلو كانت (قصة الطوفان) فيها شائعة، على ما نعلم نحن الآن، وأن اسم بطلها يبدأ بهذه الحروف، ألا يستتبع ذلك أن النسخة العبرانية لقصة الطوفان قد استمدت من مصادر شمالية. وعلى ذلك يلحظ الأب باروز أن اسم (جبل اراراط) الذي لا يظهر في النسخة البابلية، ويظهر في النسخة العبرانية بوصفه الجبل الذي استوت عليه (السفينة)، وهو أعلى جبل في تلك المنطقة وأول ما يظهر من اليابسة عند انحسار الماء، وهذا دليل آخر على استمداد القصة العبرانية من مصادر شمالية أيضاً.

وجاء إبراهيم على ما ورد في (العهد القديم) من (أور) فلا شك في أن يكون قد سمع قصة الطوفان السومرية فيها، إنها من قصص (الخليقة) و (التكوين) التي نقلها إبراهيم من (وطنه الأول) وكانت القصة على شكلها الأولي الوارد في الرقيمات المسمارية، وبعد تطور بطيء، وإدخال أشياء كثيرة عليها، اتخذت الشكل الذي هو الآن بين أيدينا.

وملحوظ آخر أيضاً: أن الأدب البابلي، شأنه شأن الأديان القديمة قد أثر فيه الدين ومن ذلك إشراك الآلهة في الملاحم على ما ورد في (قصة الطوفان). ومعلوم أن تقديم الضحايا والقرابين كان جزءاً لازماً من الديانات القديمة. إن آلهتها، على ما كانت تتراءى لأتباع تلك

الأديان،عرفت الجوع والظمأ، وعلى غرار ما كان يعرفهما الإنسان، وكان لزاماً على (عابديها) أن يقدموا لها الماء والطعام. إن(قصة الطوفان البابلية) تروي كيف أن أبناء الجنس البشري عندما دهمهم الطوفان، جاعت الآلهة العليا، وذلك لأنها عدمت القرابين التي كان البشر يقدمها لهم يومياً، وعلى ذلك ما أن غادر (أوتا – نبشتم) السفينة ووضع رجله على اليابسة إن السفينة لا تجري على اليبس) حتى كان أول شيء فعله هو تقديم الضحايا، وسرعان (ما شمت الآلهة النكهة الطيبة وتجمعت على غرار ما يتجمع الذباب على القربان).

إن النسخة العبرانية للطوفان تعدم هذا (التشبيه الساذج)، لكن نوح دأب على بناء المذبح وتقديم (النذور المشوية، من كل حيوان نظيف، ومن كل طير نظيف)، والرب يدأب على شم النكهة الطيبة (ويقسم بأنه لن ينزل الضربة القاصمة بكل شيء حي) لا عبادة من دون تضحية، وهذه إثارة من تلك العهود. وما عزم عليه إبراهيم من تضحية ابنه إسماعيل للرب، منها، ما إلى الشك في ذلك من سبيل.

من ذلك يتبين: أن قصة (الطوفان) نجمت من الصنيع الأدبي: السومري – البابلي – الآشوري، فكان لها نظير في (العهد القديم). فيها (السفينة) وقد طليت بالقار، متوج بلاد ما بين النهرين منذ القديم، وفيها (رجل) واحد معين، وأن اختلف اسمه هنا وهناك، وقد فسرنا ذلك فيما مضى، أنذرته الآلهة بأن (طوفاناً) سيغمر الأرض وشيكاً. ثم فتحت أبواب السماء بماء منهمر وأغرق الماء كل من كان على الأرض، واستوت السفينة على (جبل) اختلف أسمه، هنا وهنا، وقد فسرنا

السبب فيما مضى أيضاً، ثم وأرسل ذلك الرجل ثلاثة من الطيور. ثم يخرج من السفينة الناجون ليقدموا القرابين. أن الشبه بين ما ورد في المصادر السومرية والبابلية والآشورية والعبرانية تجعل الأصل واحداً.

وبطبيعة الحال هناك اختلافات ثانوية، ففي النسخة البابلية تعدد للآلهة، وأحدهم هو الذي قرر أن يطلق الطوفان والآخر هو الذي أفضى بسر ذلك، وفي النسخة البابلية ما يفيد بان الآلهة بعد إطلاق الطوفان امتلأت منه رعباً. لكننا لا نستطيع أن نقر أن ذلك كان شأن (جيهوه فاه: يهوه) أيضاً. إن عشتار، آلهة الحب تجبه الإله العظيم الذي كان المسؤول الأول عن الطوفان، وتوبخه بمرارة على ما جنت يداه، فهي تفيد بأن ليس من حق الإله تدمير الجنس البشري كله، إذ قد يكون بعضهم في عداد الطالحين، لكن من بينهم من هو في عداد الصالحين أيضاً. فإن أخطأ البشر ففي مقدور الآلهة أن توقع عليهم العقاب، أو تصيرهم جياعاً، أو تطلق عليهم الأسود للإقلال من عدتهم، لكن طوفاناً عاماً توقع أمر كان من الواجب ألا يطلق عليهم أبداً. إن هذا الإنكار يبلغ مبلغاً لا يرقى إليه ما ورد في العهد القديم: فـ (ذو الخطأ مسؤول عن خطيئته) أو بعبارة أخرى: (ألا تزر وازرة وزر أخرى). ولم يفهم اليهود هذه الحقيقة أبداً[1].

---

[1] راجع: Ghiera:"They wrote on clay pp. 130-131.

مصادر البحث

1-Old Testament – Book of Genesis.

2-Sir Leonard Woolley Excavations at Ur.

3-Sir Leonard Woolley: Abraham.

4-Mackenzi: Myths of Babylonia and Assyria.

5-Pinches: The Religion of Baylonia and Assyria.

6-King: Babylonian Religion.

7-The old Testament in the Light of His- toucal Records and Legends of Assyria and Babylonia..

8-Encyclopaedia of Modern Knowledge Vols. I and II.

9-Hutchinson, R.W.: A century of Ex- plorations at Nineveh, London, 1929.

10-Encyclopaedia, International, Ezra and Etza, Book, of.

11-Seton LIoyd: Twin Rivers.

12-George Roux: Ancient Iraq.

13-Chiera: They wrote on clay.

14- مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة – طه باقر.

15-Ancient Near Eastern Texts.